

عروض الكتب

المرأة زمن سلاطين المماليك

د. أحمد عبد الرزاق

مكتبة سعيد رأفت، القاهرة ١٩٨٤

مراجعة الدكتور
عبد المنعم المشاط*

يعرض هذا الكتاب بصورة مفصلة ولأول مرة لوضع ومكانة المرأة المصرية في العصر المملوكي، وكذلك لدورها ونفوذها في الحياة العامة، ويوضح أ. د. أحمد عبدالرازق مؤلف الكتاب مدى حيوية هذه الدراسة خاصة وانها تتعلق بالمرأة في مجتمع شرقي يتميز «بالمحافظة الشديدة» كما أن الشئون العائلية والمنزلية إما أن تعد مسائل مألوفة ومن ثم لا يوجد داع لدراستها أو من الخصوصيات التي لا ينبغي التعرض لها، وقد استند المؤلف الى العديد من الدراسات والكتابات الأصلية، والقصص وكافة المراجع، ومنها مثلاً قصص ألف ليلة وليلة.

* استاذ العلوم السياسية المساعد بجامعة القاهرة والامارات

وينقسم الكتاب الى ستة فصول تتناول مكانة المرأة، ودورها في الحياة العامة، وسلطانها ونفوذها، ومسائل الزواج، والأسرة، ثم الزينة التي تتحلّى بها المرأة .

لقد تمتعت المرأة في عصر سلاطين المماليك الممتد من عام ٦٤٨ - ٩٢٣ هجرية بقسط وافر من الاحترام، ووضح ذلك من فيض الألقاب التي خصصت لهن والثروة التي خلفتها، وكذلك حرص السلاطين عليهن وعلى مشاعرن، وامتد الاحترام الى ما بعد الممات من توزيع للصدقات والأموال على روح الفقيدة . ولم يقتصر هذا الاحترام على نساء السلاطين والأمراء وانما امتد كذلك الى عامة الشعب .

ومع ذلك، تشير مصادر أخرى إلى أن المرأة كانت أداة متعة واستغلال، يضايقها السلاطين ويسنولون على أملاكها، ورغم ذلك تدل الوقائع الى مناصرة القضاة للمرأة اذا كانت صاحبة حق حتى اذا تعرض هؤلاء القضاة للأذى .

ولقد شاركت المرأة في الحياة العامة سواء الحياة العلمية أو الدينية، فعملت محدثة وانخرطت في النشاط الصوفي، كما كانت تعمل في بعض الأحيان من أجل كسب قوت يومها، وان عملت بعض النساء في البغاء، ومن عجب ان تنظم الدولة المملوكية صنعة البغاء وتسبغ عليها الشرعية وذلك بفرض ضرائب على البغايا الى أن ألغى الظاهر بيبرس هذه الظاهرة المشينة .

وعملت بعض النساء في فن الموسيقى والغناء، وتولت النساء في كثير من الأحيان ادارة الشئون الخارجية للمنزل من شراء حاجيات، والنزول الى الأسواق لهذا الغرض، وهكذا كان يسمح للمرأة بالحركة في الأماكن العامة وان وضعت بعض القيود في بعض الأحيان تحسباً للافتتان وحرصاً على السلوك العام .

وكان للمرأة المصرية في عصر سلاطين المماليك نفوذ وسلطان يسترعي الانتباه، فأحياناً تتدخل نساء السلاطين والأمراء في شئون الحكم وتوجيه سياسة الدولة، ولعل أفضل دليل على ذلك تولي شجرة الدر عرش مصر في فترة حرجة من تاريخها، وتفاوضت المرأة مع المنافسين، كما احترمت كلمتها والتزاماتها، كما تدخلت نساء السلاطين بغرض اصلاح بينهم وبين الأمراء .

كما لعبت الجوارى والمحظيات دوراً لا يمكن إغفاله في الحياة المصرية نظراً لعلاقتهم الوثيقة بالسلاطين والأمراء . وقد دفع ذلك بعض الفقهاء الى التحذير من مغبة هذا الدور، فقد حذر ابن تيميه من طاعة النساء لأن «أكثر ما يفسد الملك والدول طاعة النساء» .

ويقدم الكتاب تحليلاً تفصيلياً لمسائل الزواج والأسرة والزينة وهي التي تعكس بوضوح وضع المرأة في هذا العصر . فلقد اعتمد الزواج على الخاطبة التي تحاول التوسط بين أهل العريس وأهل العروس، وعلى الرغم من أن الشريعة الاسلامية تقضي بضرورة موافقة الفتاة على الزواج إلا أنه من الراجح أن الفتاة في العصر المملوكي لم يكن لها أي

رأي في اختيار زوجها، وترك الأمر لوالدها وربما شاركته الرأي أم الفتاة .
أما فيما يتعلق بالماليك، فقد اتجهوا في الغالب الى الزواج من بنات جنسهم، كما اتجهوا أحياناً إلى الزواج السياسي الذي يخدم تبادل المصالح، كما أنهم لم يقدموا على الزواج من المصريات أو بنات الشعب المصري .

ويبدو ان هذا العصر شهد مشكلة ارتفاع قيمة المهور أو الصداق، اذ كان العريس يئن دائماً من الصداق، فقد ذكر الأمير وصال وهو يصف حاله «لا بد من تدبير الحال، وتجهيز المال على اني الليلة أعوز من زنبور وأفلس من طنبور» . وجرى العمل على عقد القران في المساجد عملاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم، «اعلنوا النكاح واجعلوه في المساجد» . ويرتبط بالمهر والصداق جهاز العروس والذي كان يعكس الوضع الاجتماعي ودرجة الثراء وقد تبارى السلاطين في اظهار ثرائهم وذلك بالمبالغة في قيمة الجهاز فمثلاً حمل جهاز خوند ستيته ابنة السلطان الأشرف شعبان على خمسمائة حمال وعشرة قطر بغال . كما بلغت تكاليف جهاز (شوار) احدى عشرة بنت هن بنات السلطان الناصر محمد بن قلاوون بثمانمائة ألف دينار، وقيمة جهاز خوند فاطمة ابنة الأمير منجك ثمانمائة ألف مثقال ذهباً .

ويبدو من هذه الأرقام مدى تركيز الثراء، ومدى سيطرة السلاطين والأمراء على موارد البلاد، كما تعكس كذلك مدى تمتع مصر بوفرة في المال وسعة في الدخول، ومع ذلك تباينت أفراح العامة واتسمت بالتقشف ومظاهر الحرمان، واختلفت عن أفراح القاهرة ومباهجها .

ويشير المؤلف كذلك الى ظاهرة تعدد الزوجات في عهد الماليك ناهيك عن الجواري، ويبدو ان النساء لم يجدن غضاضة في ذلك، فقد قبلن مكرهات هذه الظاهرة .
بمعنى أن الكلمة العليا كانت ولا تزال للرجل في هذا الخصوص .

ولم يعرف الماليك نظام الأسرة كما نعرفه نحن اليوم، فالابن لا يخلف أباه في مركزه ولا يرثه في ثروته، وانما المملوك هو الذي كان يحل محل أستاذه ويرثه حتى في الاستيلاء على حريمه، كما كان الأمير يأكل مع مماليكه وليس مع أهل بيته، وهكذا اتسمت الحياة الأسرية لطبقة الماليك بالتفكك والجمود والسطحية .

ونظراً لكل تلك الظروف فقد كرست الأم وقتها لتربية أبنائها والاعتناء بهم، والدفاع عنهم ضد أية مخاطر، وترتب على ذلك حب الأبناء المفرط لأمهاتهم .

ومع كل مظاهر الاخلاص آنفة الذكر تفيض قصص ألف ليلة وليلة بقضايا الخيانة الزوجية والتي نجمت عن خروج المرأة إلى الأسواق وما تتعرض له من اغراءات عديدة قد تدفعها الى الانحراف .

ويرتبط بالأسرة مسألة الانجاب، ويبدو ان الأسرة المصرية في هذا العهد كانت تنشرح فرحاً بوصول مولود ذكر، تقام له الولائم، والأفراح، واذا كان المولود ذكراً

اختار الأب له الاسم، أما إذا كانت أنثى ترك للأُم اختيار اسم لها . ويعطي المؤلف اهتماماً زائداً بمسائل الزينة التي كانت تتحلّى بها المرأة، اذ يخصص حوالي خمسين صفحة لكافة التفاصيل المتعلقة بها، ويبدأ هذا الجزء بوصف أحد المعاصرين لنساء مصر بأنهن أرق نساء الدنيا طبعاً وأحلاهن صورة . ويبدو ان النساء لجأن إلى استخدام الحمامات العامة للعناية بأنفسهن وابرار جمالهن وفننتهن، وكانت هذه الحمامات تلعب دور معاهد التجميل في عصرنا . وقد أشرفت الدولة المملوكية على هذه الحمامات ضماناً للصحة العامة .

وحرصت النساء على الاهتمام ليس فقط بجمالهن، وانما كذلك بجسدهن وبدانتنهن، وسعت الى زيادة وزنها حتى تزيد درجة جاذبيتها للرجال، ولا شك ان هذا الحرص يتنافى مع اتجاه المرأة المعاصرة نحو انقاص وزنها حرصاً على جذب انتباه الرجال اليها .

وترتب على اهتمام النساء بجمالهن تطور أدوات الزينة ومعدات التجميل كالأمشاط والمرايا والمكاكل والحلي والمشغولات الذهبية بكافة أنواعها، هذا فضلاً عن الاهتمام الشديد بالملابس سواء من حيث الشكل أو نوع القماش المستخدم فيها، وعكست الملابس والأزياء في العديد من الأحيان بعض التطورات والأحداث السياسية التي مرت بالبلاد . ويبدو من الوثائق ان المرأة المصرية كانت تلبس الحجاب، اذ لم يكن باستطاعتها أن تطوف شوارع المدينة بغير حجاب الا اذا كانت من بين الجاريات المخصصات للخدمة في المنازل والقصور، كما شاع استخدام النقاب وهو عبارة عن قناع أسود اللون اكتفى فيه بعمل فتحتين للعينين .

ولقد كانت الملابس وأدوات الزينة والتجميل باهظة التكاليف، ومع ذلك اقبلت عليها المرأة بحكم طبيعتها التي تدفعها الى الاقتناء والتجمل .

ان هذا الكتاب الذي ألفه عالم في التاريخ الاسلامي يشد القارىء للاستمتاع بقراءته لأسباب عديدة، أولها عمق الموضوع وسلاسة العرض، وثانيها ثراؤه بالأحداث والمعلومات المفيدة والمثيرة، وثالثها غناه بالقصص المثيرة والمفيدة في الوقت نفسه، لفهم دور المرأة من ناحية، ونظرة المجتمع اليها من ناحية أخرى في تلك الفترة التاريخية الهامة، والكتاب بهذه الصورة يعبر عن جهد كبير ويعكس درجة عالية من الدقة والتخصص .

وإذا كان المؤلف قد بدأ كتابه بمقولة «بولان دي لا بار»: «إن كل ما كتبه الرجل عن المرأة يجب أن يؤخذ بشيء من الحذر، لقد كان الرجل الخصم والحكم»، فان الكتاب بالفعل يعكس رؤية الرجال بما تعنيه من انتقاء وتحيز ضد المرأة، وأهم المؤشرات للتدليل على ذلك، انه من بين ٥٥ مخطوطة عربية ليس هناك واحدة كتبتها امرأة، ومن بين ٨٣ مرجعاً عربياً هناك ثلاثة فقط كتبتها نساء .

ويبدو التحيز في تلك الروايات والقصص حول جمال المرأة وفقنتها ودورها الثانوي الى جانب الرجل، وحول ما اتسمت به من قدرة على الاغراء الى حد الغواية، وما تناقله الناس حول ضعفها أمام الرجل، وقصص الخيانة الزوجية، والروايات العديدة حول البغاء والاتجار في الجسد. ولم تفلح محاولات المؤلف للتخفيف من هذه الصورة المشوهة للمرأة بالتركيز أحياناً على دورها الايجابي في المجتمع ونفوذها واخلاصها في تربية ابنائها وحبها لزوجها، أو بذكر النماذج المضادة للسلوك المشين والتأكيد على نقاء المرأة، أو بالتمييز بين حياة العامة والمصريات من ناحية، وحياة المماليك والأمراء من ناحية أخرى، حيث اتسمت الأولى بالمحافظة عكس الثانية.

ولا يتضح من ثنايا الكتاب ما اذا كان المؤلف يميز بين الأغنياء من ناحية والفقراء من ناحية أخرى، ويربط الرذيلة بالأول، والفضيلة بالآخرين أم لا؟ كما لا يتضح من العرض بوضوح كاف الدور السياسي والاجتماعي للمرأة أو حتى دورها الاقتصادي إلا إذا كان هذا الدور محدوداً للغاية كما ورد بالكتاب.

وعلى الرغم من تطور النظرة المعاصرة الى المرأة بحكم تعليمها وانخراطها في العمل ونشاطها في الحياة العامة، فإن هناك شواهد عديدة تشير الى استمرار النظرة المتدنية الى المرأة خصوصاً بالنظر الى الحياة العامة بمجالاتها المتعددة مما يدفع المرء إلى القول بأن العصر الحالي بالنسبة للمرأة ما هو الا امتداد لعصر المرأة في عهد سلاطين المماليك.

ان الكتاب اسهام أكاديمي راق لفهم دور المرأة في عهد مضى، ولقد نطلب ذلك من أ. د. عبدالرازق الرجوع الى المخطوطات والأصول التي كتبت في تلك الفترة وهو يستحق الشكر والتقدير على ذلك، وعلى المتعة والاثارة التي تنتهي لقارئ كتابه القيم.